أوهام «القطب البديل»

◄ يعيش عالمنا العربي أزمة مستديمة تستفحل اكثر وتتعمق يوما بعد آخر فالأخطار المحدقة تتكاثف به ويتوارى التعامل النقدي مع القضايا الراهنة والساخنة خلف ستار قاتم اللون ، في الاغلب تحكمه المصالح الآنية الضيقة او الهروب من المسؤولية التاريخية وتنسجه في احايين أخرى أحاديث متواترة عن سياسات القوى الكبرى وانعكاسات صراعاتها على قضايا المنطقة الساخنة التي تبدو وكأنها ساحة مفرغة من الفاعلين والعواصم العربية المؤثرة وقابلة في الاساس لفعل اطراف خارجية.

عبدالملك السلال

هدف سام .. ولكن

والحقيقة ان رحلةَ البحث العربي عن قطب او اقطاب بديلة هدفها استعادة التوازن السياسي الفعال على الساحة الدولية . واناطتها بمهمة كبح جماح الاخطار الامريكية عى المنطقة العربية بعد احداث «١١سبتمبر» والتقليل ما امكن من انحياز ادارة بوش الى جانب الكيان الصهيوني ودفع الادارة الامريكية للتفاعل مع قضايا الشرق الاوسط بنزاهة وشفافية مطلوبة تخدم استقرار المنطقة ونموها .

وواقع الامر ان الشعور العام بالخطر والتهديد في العالم العربي حيال خطط الهيمنة الامريكية تحت ستار مكافحة الارهاب قد دفع العديد من الكتاب والمحللين بعد مرحلة قصيرة نسبيا من محاولات النقد الذاتي والنظر في المسببات المحلية والاقليمية للراديكالية الدينية بعيدا عن القوالب الجاهزة لمطامع الاجنبي الى التفتيش عن اقطاب بديلة يتعين عليها مواجهة الولايات المتحدة ، وتحويل بنية النظام العالمي من الاحادية الى التعددية ، أو على الاقل الوصول الى الثنائية القطبية ولسان الحال يقول «نحن خبرنا الاخيرة طويلا واكثر قدرة على التعامل معها في جميع الاحوال » .

ووقع الاختيار في لحظات التخبط الاولى على كل من روسيا والصين ، وتوقع عدد غير قليل من المعلقين العرب صراعات ومواجهات بين الدولتين والولايات المتحدة المتكالبة على التواجد العسكري في اسيا وعلى نفط بحر قزوين .. لكن الآمال العربية في الاتحاد الروسي خابت سريعا مع تزايد مساحات التنسيق الاستراتيجي بين الرئيس الروسي بوتين وادارة بوش .. في حين صمدت الصين لفترة اطول في المخيلة العربية كقطب مناوئ محتمل ، ولم تشفع تأكيدات المسؤولين الصينيين انفسهم على ان بلدهم ليست قوة عظمى ومازالت تئن تحت وطأة العديد من الضغوط الاقتصادية ، ولاترغب في الدخول في صراعات مع الولايات المتحدة وتخرجها من لعبة الاقدار العربية الباحثة عن المنقذ الخارجي .

رتبت خيبات الامل المتتالية في ظل حالة شلل اقليمي شبه تام تغيرا رئيسيا في دفة النقاش العربي بعد عام ٢٠٠٢م حول شكل النظام العالمي ومنظومة علاقات القوى الدولية في اطار البحث عن اقطاب بديلة الى التسليم بالهيمنة الامريكية .. ولكن ذلك تواكب مع شيوع معالجات ايديولوجية لمصادر القوى العظمى في التاريخ الانساني اكدت ان هيمنتها دائما الى الزوال مهما بلغت من رقي وتقدم أو عاثت في الارض فسادا .

وسرعان ماتغير هذا التحول المؤقت في الرؤى العربية لمجرد بروز بعض المواقف الاوروبية داخل التحالف الغربي المغايرة لخطة الادارة الامريكية والمتعلقة بالحرب الدولية على الارهاب حتى إعادة العديد من الفضائيات العربية والكتاب الى حلبة البحث عن القطب «البديل» .

وأدى ارتفاع صوت الحكومات الاوروبية بأهمية التعامل الشامل مع ظاهرة الارهاب والراديكالية الدينية ، وربطهم ذلك بحتمية النظرة غير الامنية الى ازمات الشرق الاوسط الى توالي التحليلات العربية المؤكدة على الدور الجديد للاتحاد الاوروبي في النظام العالمي.

قبل فوات الاوان

والخلاصة ان الرؤية الغالبة على النقاشات العربية لدور الاتحاد الاوروبي انما تتعامل معه على ارضية ادراك خطر الهيمنة الامريكية بصورة رومانسية ايديولوجية تنشغل عن حقائق السياسة والتاريخ بأوهام «الآخر المنقذ ».

ولايزال العقل العربي برفض التخلي عن حلم نصرة اوروبا بالقضايا الساخنة على الرغم من محدودية فاعلية السياسة الاوروبية في الشرق الاوسط وتراجعاتها المتتالية في العراق وفلسطين .

ووسط هذا البحر المتلاطم من الاخطار والتحديات المحدقة بالامة من كل جانب والسياسات المتتالية الفاشلة وقصورها في مدى الرؤية في الافق البعيد آن الاوان للعرب للمراجعة النقدية ، وتحويل وجهة التدبر في قضايانا من احاديث الاقطاب المهيمنة او البديلة ، الى البحث في جوهر المصالح العربية والتفتيش عن مساحات الفعل الحر ، وصياغتها في خطاب معاصر يفهمة العالم .

خطاب يؤكد على مسؤولية العرب التاريخية عن كبوات مجتماعتهم ، ويرصد بشجاعة في ظل ادراك واقعي لمواقف القوى الخارجية بما فيها الولايات المتحدة ، الامكانيات الذاتية للديمقراطية والتنمية . فخيالات الآخر العدو المتآمر دوما علينا ، او الآخر المتاهب لنصرتنا عند الشدائد لن ترتب في اللحظة الراهنة إلا المزيد من الركود الفكري والصدمات المتوهمة التي ماعاد للشعوب العربية القدرة على التعامل معها أو تحمل نتائجها ...

فهل نحن فاعلون ؟

ويصبح اذن تحقيق بعض المصالح لأطراف عربية بصرف النظر عن كنهها على حساب القضايا الهامة والمصيرية للامة العربية والاسلامية مرهونا في هذا السياق الادراكي بوجود قوى اجنبية موالية للعرب والتوهم بقدرتها على مقاومة المخططات الامبريالية الجديدة التي تحاك علانية وراء الكواليس ضد الانظمة العربية جمعاء .

خيالات المنقذ الآخر

ويصير في التحليل الاخير اسيرا للمنطق «اختلاف الغرباء او الاعداء رحمة» واذا اردنا متابعة ذلك الخيط بصورة واضحة ، فإنه يمكن القول أن الهدف الابعد للبحث عن «القطب البديل» وخيالات الآخر المنقذ ، يعكس اساسا في طياته محاولة اعفاء الذات الجماعية العربية من مسؤولياتها ا لتاريخية ازاء ازمتها الكبرى واشكالاتها المتعددة في غياب التضامن العربي الى تعطيل مسيرة العمل القومي والتكامل والتعاون المشترك .. وصولا الى انعدام الديمقراطية وتفشي مستوى العنف وارتفاع معدلات البطالة والفقر الى مستويات غير مسبوقة .

وفي ظل هكذا أزمة يظهر النظام العربي بمظهر «العاجز» الذي يتقوقع في بوتقة التمني بعد أن فقد زمام المبادرة وموقع الفعل ورد الفعل وانتقل الى خانة «المهزوم» .

فالعرب على سبيل المثال عندما يبحثون عن اوهام «الآخر المنقذ» يطالبون غيرهم بفعل المستحيل ازاء القضية الفلسطينية وتحريك عملية السلام أو تطورات الاوضاع في العراق المحتل ، وهم انفسهم الطرف المعني لم يخرجوا من شرنقة الاختلاف ويفتقدون لزمام المبادرة في كل شيء ، انما يضعون انفسهم في مواقف مضحكة ومبكية في آن واحد وتندرج في الاطار النظرة الرائجة الى الاتحاد الاوروبي على انه قطب جديد صاعد ينافس بالفعل الولايات المتحدة كقوة عظمى بعد أن هيمنت على الساحة الدولية كقطب وحيد ، وكذلك الافتراض الغالب على النقاشات العربية بان طبيعة المواقف الاوروبية في الشرق الاوسط يختلف جذريا عن السياسة الامريكية .

ويغيب مثل هذا الادراك العديد من الحقائق المرتبطة بالوزن الدولي الفعلي للاتحاد الاوروبي وخلافات بين اعضائه في مجال السياسة الخارجية ومصالحهم المتضاربة في المنطقة .. فضلا عن واقع التحالف الاستراتيجي بين الولايات المتحدة وأوروبا بجوانبه الحضارية والاقتصادية والعسكرية.